طالبان

أمسك يدها الأنثوية، تشابكت أصبعهما، ثم تعانقت أكتافهما، وسارا نحو الحافلة المهترئة. وبيده الأخرى حمل حقبتها، وعلى ظهره حقبته الأخرى. أما هي فتلوح بيدها اليسرى، ناحية أبيها وأمها، معلنة عن الانسحاب من حياة الدوار.

لما أوشكت الحافلة على التوقف، سمع صوت فراملها الصدئة. وقبل أن تتوقف بشكل كلي، ترجل منها الكرسون "القلدة". لم يتأثر وهو يترك الحافلة، ليضع رجليه على الأرض، بحركة الحافلة. قوي البنية كان. ولعل هذا هو السبب الذي يجعل الناس لا يزالون أوفياء لهذه الحافلة الصدئة التي تقيأ فيها الكبار. وبال فيها الصغار. الركاب يأتمنون "القلدة" على أرواحهم لأن لصوص المحطة يهابون بطشه. فإذا جاءهم بطشه لا يستقدمون لحظة ولا يستأخرون.

وضع "القلدة" حقائبهما في مكانهما المخصص، وفي حركة سريعة وخفيفة التقت يد "القلدة" بيد إبراهيم، ودَسّ له خمس دراهم مقابل الحقبتين.

علا هدير المحرك، مجددا، محدثا ضوضاء؛ ليعلن عن انطلاق الرحلة، وعن ما ينتظر هؤلاء المعطوبين من ألم، وعن طول المدة، التي

ستتقوس فيها قنواتهم في مقاعد مصممة بدرجة تسعين درجة في زو اياها، و مصممة بشكل ثابت لا يسمح للجالسين بتمديدها ليتكئوا.

لقد قرأت عن تاريخ دوارنا، قالت مريم بعد الجلوس، إن القصبة التي بجوار منزلنا، والتي صارت سجنا في عصر الكَلاوي، شهدت على أشكال غريبة من التعذيب النفسي والجسدي: كإلقاء السجناء في براميل غارقة. وكان السجانون، إذْ يلقونهم، يلفّون حول أعناقهم حبالا، فيسحبونهم شيئا ما؛ إذا كان السجناء قصيري القامة، حتي يبلغ الماء آذانهم، ويبقون هكذا غارقين حتى آذانهم. ولما يلبثون في الماء مدة طويلة، ويستخرجونهم، يدب كلل في عظامهم، وفي عروقهم، وفي نفوسهم.

تُذكرني الفكرة بما حدث لسيدنا يونس عليه السلام لما لبث في بطن الحوت حتى وَهَن جسده. ومن أنواع التعذيب الأخرى أنهم يجلسونهم لمدة طويلة دون حراك، ودون أن يتركوا لهم فرصة للاتكاء، أو النوم، أو الاستلقاء. فيظلون هكذا حتى يُجنُّوا.

- قال لها إبراهيم ساخرا: "وهل رأيتِ هذا كلّه؟".
- قالت: "قرأته. إنه التاريخ؛ تاريخنا في سنوات الرصاص؛ تاريخنا الأسود، الذي صنعه المستعمر".
- قال: المستعمر؟!
- وحتى لا تظل مريم تجادله في فكرة الاستعمار، ولأن الله يسمع قول المجادلة إذ تشكو عن ماضي الوطن، قالت: "إذا لم أرَه، فها أنا، أنت، أنتم، هم، هن... يعيشونه. ألا ترى أننا سنظل في هذه الحافلة، وعلى هذا

المقعد دون حراك، ودون استلقاء كمن كُبِّل بالأغلال عشر ساعات أو يزيد كي نبلغ المدينة".

قهقه إبراهيم بصوت صاخب حتى أفاق رضيعا صغيرا من حضن أمه، ثم دخل الرضيع في موجة صراخ ونحيب.

نظر إليه "القلدة" نظرة تأفف وامتعاض. لكن إبراهيم لم يعره اهتماما. ذكرني المشهد بمشهد سيدنا إبراهيم، وهو يسأل لما حطم الأصنام.

تركت مريم الدوار لأول مرة بعد أن حصلت على شهادة الباكالوريا. كان ذلك حلمها، غير أنها، الآن، تحس بجاذبية عجيبة إلى الوراء، إلى الدوار، وإلى لحظات الماضي. هكذا نحن البشر. لا نعجب بالماضي حتى يمر، ولا نتمسك بالوراء حتى نبلغ الأمام.

إبراهيم رفيق مريم وحبيبها. بل اتخذته فارس أحلامها، وكذلك هو. يكبرها بسنة واحدة. درس سنته الأولى بالجامعة، و انتظرها بشوق في المدينة. تخيل وتصور الأحداث التي سيعيشانها، وتخيل كم قبلة مسروقة سيطبعها، في غفلة، على خذيها، وكم خاطرة سيسرقها ليتلوها على مسامعها.

مخيلته لا تبرح عن التخمين؛ يظل يفكر فيما سيقتنيانه، وما سيلبسانه، وهما ذاهبان إلى الجامعة، كل يوم. تصور أنه سيتوظف قبل تخرُّجها؛ لأنه سبقها بسنة إلى الجامعة، وسيوفر بعض المال، وسيؤثث شقة صغيرة، وسيعين حبيبته إلى أن تحقق حلمها: أن تصير مدرِّسة.

يظن نفسه، دائما، المنقذ والمخلص من أمواج المدينة، التي تهيج على حين غرة. ينام، ويحلم أنه ذاك الرجل الخارق، الذي يحقق العدالة على هذه الأرض.

هما، الآن، في الحافلة. تشعر مريم بالدوار والغثيان. وها هو ينظر إليها، لكنه لا يستطيع أن يفعل شيئا. لا يستطيع إخراجها من دوامة الدوخة. بل لا يستطيع حتى، أن يأمر "القلدة" ليطلب من السائق التوقف للحظة، حتى تستنشق مريم نسمات من الهواء البارد، التي تتسلل على هذه الجبال.

أحس أنه ضعيف. وأن تخميناته، وأزلامه، وآماله، وأحلامه... تذروها الرياح كلما اقتربا من المدينة. فالمدينة وحش لا يرحم، ووحش لا يفلح، ولا ينفع معه تمويه الرجل الخارق.

ماذا سيقدم طالب لطالبة غير الألم و الدموع، أو حب أعمى، أو عشق معتم سرمدي.

ها هي مريم تتذكر نصيحة أمها: "ضعي في فمك بعضا من حبات الأرز. فهو يذهب الدوخة". كانت مريم ستهزئ من أمها وقتها: "أنت أمي قديمة، أنا غاديا للمدينة ماشي للكوزينة "!.

على مضض، تتقبل الأم هاجر استهزاء ابنتها الوحيدة. فهي، في النهاية، تبقى فلذة كبدها. لعل هذه العبارة وحدها هي التي لمت شمل نصف أسر العالم. وأكثر من نصف أسر المغاربة. فالمغاربة شعب يخاف الفضيحة، أو الإفصاح عن عصيان الأولاد. لكن ما إن يكتشف الآخرون ذلك حتى

تسمعهم يدقون الجرس، معلنين عن الفضيحة، وليسوغوا ويحافظوا على ماء الوجه.

إن المغاربة ليسوا سوى ممثلين. لكنهم يتقنون لعب الأدوار. فهم جرّيئون بما يكفي ليترجلوا، ويتخلوا على النص الأصل. مبدعون بالفطرة.

رمت ببعض الحبات في فمها تلوكها. تذهب بها يمنة وتجيء بها يسرة. لكن دون جدوى. فالدوار لا يزال ينخر تركيزها، ورأسها، ها هي تعود مجددا إلى الحوار الدائر بينها وبين أمها علها تظفر بكلمة مفتاح، أو نصيحة أخرى تتبعها على أن تهديها مما علمت رشدا. لكن للأسف. فذاكرتها الضعيفة لا تنفعها في الحالات العادية، فما بالك، والدوخة تسكنها.

ما أشبه هذا الحوار بحوار الخضر مع موسى. فموسى يعلم أن الخضر لن يستطيع معه صبرا، فكيف تصبر مريم الحالمة بالمدينة على خر افات هاجر. "كلشي بالنية "!.

نزلت هذه العبارة، على ذاكرة مريم، كما تأتي المرء الطمأنينة بغتة. ولولا النية، لما بذر الفلاح البذور في أرض قاحلة بلا ماء. لكن نيته تبلغه المطر...

"الزواج بالنية، الدوا بالنية، العلم بالنية...إلا الرجل ما دري فيه النية وخا إحلف ليك فالكعبة". كلام هاجر كان ديو انا تعود إليه كلما فقدت الثقة في شيء.

هاهي تلوك حبات الأرز الرطبة في فمها مغمضة عينيها، مستحضرة النية بجانبها، وسرعان ما تحسنت حالتها، فصارت أفضل.

فتحتْ عينيها، وبجانبها إبراهيم. "كيف لي أن أستحضر النية، وإبراهيم بجانبي، وأمي قالت لي:" ديري النية... إلا الرجل ما ديري فيه النية ...؟!".

فجأة شككت في رجولة إبراهيم. فإبراهيم يستحق النية. وإلا فَلِمَ ائتمنته أمي عليّ؟ كيف لها أن تقول: "لا تثقي في رجل... وهي ممسكة بيده، وتترجاه أن يعتني بي كأخته، وأن يرشدني إلى طالبات من الدوار لأكتري معهن، وأن يعينني، في دروسي ومحاضراتي، حتى أتأقلم مع أجواء المدينة؟

.تساءلت مريم: "هل كانت أمي حمقاء، حتى تأتمنني على طالب لا تجمعه بعائلتنا ولو ذرة خردل من دم؟ كيف تضع ثقتها فيه؟ هل فيه نقص من الرجولة؟

ربما كانت أمي في وضع لا يسمح لها في فقدان النية بطالب من الدوار. فالمدينة شاسعة ومعتمة، ورجالها وحوش مجهولة. أما إبراهيم فرجل معلوم، ووحش من وحوش الدوار. "ألِّي نعرفوهْ خير من ألّي ما نعرفوه".

هكذا قدرت مريم الأمر. لكن كلام أمها أيقظها من سبات عميق، وغير لديها كثيرا من المسلمات والحقائق الراسخة.

إننا بحاجة إلى مثل هذه النقاشات، والأفكار التي تدخلنا إلى دوامة من التفكير، حتى ندخل دوامة الدوخة، وحتى نتنين الألوان. لأننا إذ نحب نصاب بعمى الألوان.

أخيرا، وبعد معاناة طويلة مع الدوخة، والألم الناتج عن تقوس القناة، وشم رائحة بول الصغار، بلغنا المدينة. فجرا كان الوقت. كانت،

ونحن على مشارفها، متلألئة بشتى ألوان الضوء: الأصفر، الأحمر، الأبيض، الأزرق. بدت كأنها تنين ينفث النار من فمه، أو كسماء غزتها النجوم والكواكب. وبقدر سعادتي بها، وبخروجي من هدوء الدوار، بقدر خوفي من الضوء؛ من الأضواء المتعددة: أي لون سيكون لوني؟ هل يحق لمن عاش جل حياته بين البراري، وفي العتمة أن ينتظر إلى الضوء وإلى حياة التمدن؟

الفقراء تعذبهم المدينة، والقرويون تسلب هويتهم، ثقافتهم، لغتهم، بساطتهم، عفويتهم. كل الذين يهاجرون إلى المدينة يسلبون؛ فتراهم يقلدون المدينين تقليدا أعمى. لاحظت ذلك كثيرا في أبناء الجنوب، والجنوب الشرقي، الذين يسافرون إلى المدن الكبرى كالدار البيضاء، والرباط، ومراكش... يحاولون التنصل من ثقافتهم، وسرعان ما يفلحون في ذلك. ويزداد الطين بلة، حين يعودون إلى دواويرهم، في المناسبات الخاصة، لابسين لباسا عصريا، وغريبا. يتكلمون بنبرة مختلفة، ويتصرفون كأن لم يلبثوا في دواويرهم ساعة ذات زمن.

يستهزئون، حين يعودون، من كل من لاقوه محافظا على جلباب جده، وعمامته، وخنجره.

- لماذا يتنصل الشباب من هويتهم؟

المغاربة أناس ينسون أصولهم بسرعة. ولقد يفسر ذلك بكون المغرب بلدا مستعمرا؛ فلا تكاد تجد من العامة من بلغ شأوا في المجتمع إلا وينسى منبته. فتراه يتكلم بلغة هجينة، تمزج بين ألفاظ عامية، وفرنسية، إنجليزية، حتى يقر أنه قد تربى، ونشأ نشأة سويّة.

ها هي مريم تستقبلها المدينة مثلما تستقبل الدنيا مولودا جديدا. فلا هو يدري هل يبكي نتيجة الألم، الذي يحس به بفعل شهيقه وزفيره الأول، أم خوفا مما سيلاقيه من معاناة ورزايا كما قال ابن الروم؟

لما تؤذن الدنيا به من صروفها // يكون بكاء الطفل ساعة يولد

وإلا فما يبكيه منها لأفسح // مما كان فيه وأرغد.

(ابن الرومي: شاعر عباسي، عُرِف بفلسفة التأمل والألم...)

مرت لحظات الخوف والاندهاش. فقد كانت الصدمة قوية، خاصة، بعد خروجهما من المحطة ليستقلا سيارة أجرة كبيرة، فقد كانت تقارن بين علو المنازل الشاهقة، التي تماثل نخيل الواحة، وبين قصر الأكواخ التي يقطنون بها في الدوار. المقارنات لا تسعف المرء حين تكون الهوة بالغة أوجها. لذلك علينا أن نتقبل الحقائق الثابتة أحيانا، وألا نسعى إلى الحماقات التافهة النابعة من سوء التعقل...

من زجاج نافذة، كتب عليها (نافذة الإغاثة)، كانت تطل. وكانت أنفاسها الساخنة، كلما اقتربت من الزجاج، تخلق ضبابا يحجب رؤية المارة الهاربين، والمنازل الهاربة. كل شيء سريع، وغير ثابت في المدينة.

- "لا وجود لحياة الاستقرار في حياة المدينة". قال يوسف.

تساءلت مريم حين انتشلتها كلمات يوسف من بحر صمتها: "لماذا؟ "

يلوح بيده ناحية الرصيف ليقول لها إن تلك البناية لم أخلفها هناك مذ عدت قبل شهرين.

تلتفت مريم تلقاء المكان المشار إليه، لكن دون جدوى؛ دون أن تدرك ذلك. فالمدينة سريعة، وكل شيء فيها هارب.

بعد بضع لفّات خاطفة وسريعة من السائق، أحسّت مريم، مجددا، بدوار ودوخة شديدين. كانت تعتقد أن هذا الإحساس لا ينتاب المرء إلا حين يسافر قاطعا مسافات طوالا. إلا أن اعتقادها ذهب جفاء. فالدوخة قد تأتينا في أي مكان، وفي أي زمان؛ كالموت. لا يعلمنا بقدومه، ولا يمهلنا فرصة لتجديد الإيمان. يأتي ويصرعنا وهذا كل شيء.

لكن لماذا هذه المقارنات التي لا تجدي نفعا، ونحن نؤمن أن لا قيمة لمقارنات غير عادلة؟!

في كيس بلاستيكي، وهو آخر كيس يحمله يوسف في جيبه من الأكياس الأحد عشر، أدخلت رأسها في انحناء تام، واستسلام متناه؛ تفرغ معدتها من آخر لقمة ظفرت بها في الدوار. لمّا انتهت، عقدت عقدة على طرف الكيس البلاستيكي، حتى لا ينسكب قيؤها. شاحبة الوجه كانت، محمرة الشفاه، متراخية الأطراف، ثم استسلمت بشقها الأيمن على يوسف دون إذن.

ما أصعب التعب وما أَشَقَّه حين يأتينا. نستسلم حتى لو كنا أكابر. بعد اللفات السريعة الخاطفة، أحست بتباطؤ عجلات السيارة، بل شعرت، بين الفينة والأخرى، بفرملتها المفاجئة أو المتكررة.

تفتح عينيها النعساوين لترى حركة بطيئة لأناس كثر تبدو عليهم سيمات الفقر والعيش البسيط. يلفت انتباهها اتساخ الأزقة، وجدران

البيوت، وقصرها، وصيحات الباعة، وسباب وشتائم الشبان، وموسيقى متقطعة...من الزجاج الذي بناحية السائق.

فجأة، تسير السيارة، مسافة طويلة، في الوحل، فيتسخ زجاج النوافذ. يرفع السائق الزجاج الذي بناحيته، ثم يشعل سيجارة رخيصة. تصل رائحتها أنف مريم، ثم تتفاعل معها مباشرة واضعة يدها اليسرى على أنفها ثم تزكم.

وبقدر كرهها لرائحة السجائر، بقدر حبها لرائحة هذه السيجارة الرخيصة، التي ذكرتها برائحة السجائر، التي يدخنها الرجال في قريتها الصغيرة. على الأقل، وجدت في هذه السيجارة قاسما مشتركا بين الهنا والهناك.

يلتفت إليها يوسف قائلا:

- لقد أوشكنا على بلوغ "حي الطلبة".
- لكي نبلغ "حي الطلبة"، علينا، إذن، أن نمر من هذا الحي النتن؟
- يبتسم يوسف قائلا: "بلى. بالحي الشعبي: الدوخة".
- باسمة: "هكذا اسمه إذن". ثم تردف بسمتها: "أخشى أن أصاب بالدوخة كلما بلغته".

يوقف السائق السيارة ناطقا بالعبارة المعهود سماعها، دائما، : "على سلامتكم".

تفهم مريم أنهما بلغا أخيرا، فتفتح الباب الذي بناحيتها. كانت تشعر برغبة في أن تملأ رئتيها بهواء نقي غير هواء الحافلة، ورائحة السيجارة الرخيصة. لكن يد يوسف منعتها، وسحبتها إلى داخل السيارة.

استغربت لردة فعله، لكنها أنصتت لحواره مع السائق:

– "عليك أن توصلنا إلى المنزل. فحملنا ثقيل شيئا ما".

يوهمه السائق بأنه لا يمكن أن يخطو خطوة واحدة بالسيارة. لأن الترخيص يمنحه هذا المسارفقط. وأن لا يزيد شبرا واحدا عن المحطة.

كاد يفشل يوسف في إقناع السائق، لولا تدخل مريم في آخر لحظة لتقول:

– "أرجوك عمي. إن زوجي يشكو من ألم في ساقه اليمنى، وليس بمقدوره المشي حاملا ثقلا. فهلا فعلت هذا المعروف ونزيد على أجرة السيارة؟".

لم يتردد السائق، ولم ينطق ببنت شفة. أدار المحرك، و أقفل إلى البيت مسترشدا بحركات يوسف. في الطريق، شعر بارتياح لأنه ظفر بدراهم زائدة يضعها في جيبه ولن يسلمها لمالك الطاكسي".

وشعرت مريم أنها كسبت أوّل تحدٍ لها، وأوّل مقارنة، وأنها انسلخت من جلدة "حشومة" التي كبلت كيانها، وعقَدَت عقدة بلسانها لسنين.

فيما دخل يوسف في دوامة من التفكير، والشرود، وفوضى الحواس. هل يعقل أن تكون مريم نطقت بهذه الكلمات؟

- "إن زوجي...؟ محال أنها قصدت. لقد استعملتها طعما لتلقي بالسائق في شركها. وإلا فلماذا أسرعت تفتح الباب؟ أي جرأة هذه التي امتلكتها وتملكتها في لمح البصر؟ ترى هل ألقت بكل معاذيرها؟